محور الخير ضد شر الاحتلال

كمال مجيد *

■ منذ سنة 1996، أي قبل انتخاب جورج بوش الابن كرئيس للجمهورية الامريكية، أخذ المحافظون الجدد يتحضرون لنشر سلطانهم على العالم، فألف منظرهم مايكل ليدين كتاباً تحت عنوان The National Insecurity «بتنفيذ» طالب فيه الديمقراطية في كل من العراق وايران وسورية بالقوة وعن طريق شن حرب شاملة». في حين كتب آدم مورسورو يقول: «ان تفادي قتل المدنيين يجب أن لا يكون من أوليات الحرب الشاملة، فهدف الحرب هو فرض ارادتنا ورغبتنا بالقوة وبشكل دائم على الشعب المقهور» فبلورة سياسة المحافظين الجدد قد تمت قبل أحداث نيويورك في 2001/9/11. ولتنفيذ هذه السياسة استخدم هؤلاء السادة كافة الطرق المتوفرة: العسكرية عن طريق ابقاء جيوشهم وبوارجهم الحربية في منطقة الخليج، والاقتصادية، عن طريق فرض الحصار، والاعلامية بما في ذلك الكذب بمختلف انواعه كالقضاء على اسلحة الدمار الشامل ومنع انتشار الارهاب من افغانستان عبر العراق الى أنحاء العالم، بل، وهذا هو المهم، نشر الديمقراطية بالقوة كما اقترحه مايكل ليدن.

ولفرض هذه الديمقراطية الدموية لم تتردد الحكومات الغازية في استخدام كافة الاسلحة الشريرة لتحطيم الدولة العراقية وتدمير البنية التحتية، بما في ذلك تدمير محطات الكهرباء والمعامل ومجاري المياه القذرة وسرقة محتويات المتاحف والمكتبات. وتحطيم المدارس والمستشفيات، وحل الجيش والشرطة وطرد الموظفين بالجملة، بحجة اجتثاث البعث وسوق الالوف الى السجون والمعتقلات وحجزهم دون محاكمة، وفي آخر تصريح لوزيرة حقوق الانسان، نيرمين عثمان، أكدت على بلوغ عدد المعتقلين ثلاثة وثلاثين الفاً، وذلك لغاية شباط (فبراير) 2006.

فشلت هذه الطرق الديمقراطية في فرض الاحتلال على الشعب العراقي بل فضحت شره وأدت الى اجبار المدنيين على رفع السلاح للدفاع عن انفسهم وحماية اطفالهم ونسائهم من الموت واموالهم من السرقات التي انتشرت في طول البلاد وعرضها. وبدل الاعتراف بهذا الفشل قامت جيوش الاحتلال بقصف المدن وذلك من تلعفر في أقصى الشمال، عبر تكريت والسامراء وبيجي ومدينة الصدر والفلوجة والقائم والرمادي الى النجف والكوت والدخول في حرب جبهوية وبالسلاح الابيض في العمارة وصفها رئيس أركان الجيش البريطاني السابق، على التلفزيون البريطاني، القناة الثالثة، بأنها كانت «مشابهة للمعارك التي جرت في الحرب الكورية». فتراوح عدد القتلى المدنيين بين 35 الفاً وربع مليون حيث بقيت جثث العديد منهم تتعفن في اماكن مجهولة او تحت انقاض المباني المهدمة في الفلوجة وتلعفر والكوفة وغيرها، بينما انتشرت المقابر الجماعية في بهرز وبعقوبة والمدائن وغيرها. أما خسائر الجيش الامريكي فقد بلغ عدد القتلى اكثر من 2300 عسكرياً وعدد الجرحى المعوقين بصورة جدية اكثر من 16000 في حين بلغت المصروفات الامريكية المعلنة رسمياً أكثر من 206 مليارات دولار.

أما تعذيب السجناء والاعتداء على أعراضهم باستخدام الكلاب المدربة، التي نقلها الجيش من امريكا، وبعلم قادته، الى ابو غريب، فقد تم نشر تفاصيله على شاشة التلفزيون من قبل السلطات الامريكية نفسها وتمت مناقشة حذافيره مع وزير الدفاع رامسفيلد في مجلس الشيوخ. وبالرغم من كل هذا ما زال سيدنا رامسفيلد طليق اليدين يقود جيشه لنشر المزيد من الديمقراطية (للتفاصيل: راجع النداء المؤرخ 2005/12/7 الذي وجهه الوزير البريطاني السابق توني بين والمستشار القانوني مايكل مانسفيلد والشاعر هارولد بينتر، الحائز على جائزة نوبل، وهيفاء زنكنة، رئيسة الهيئة العراقية للاعلام والثقافة الوطنية مع عوائل الجنود البريطانيين الذين قتلوا في العراق الى هيئة الامم المتحدة والى المدعي العام البريطاني للتحقيق).

وبعد فشل امريكا الذريع في حملتها غير الشرعية التجأ بوش الى خدع الشعب الامريكي بالادعاء بأنه هاجم العراق «لنقل ساحة المعركة ضد الارهاب اليه وابعادها عن الولايات المتحدة وانقاذ شعبها من تقديم المزيد من التضحيات» وان «العراق بل العالم اصبحا في أمان بعد ازاحة صدام حسين عن الحكم»، في حين أكد استفتاء نظمته «بي بي سي» (الاذاعة العالمية التابعة لوزارة الخارجية البريطانية) في اكثر من 30 بلداً في العالم، على أن الحرب في العراق «جعلت الدنيا أقل أماناً عما سبق» فلم يبق لبوش حجة الا الالتماس بالله والادعاء بأنه احتل العراق وافغانستان «بأمر من الله». تبعه في ذلك رئيس وزراء بريطانيا توني بلير حين صرح امام عدسة التلفزيون في مقابلة له مع مايكل باركينسون بأنه قرر الدخول في الحرب ضد العراق «بعد الاعتماد على الله وايمانه العميق بالمسيحية». هكذا اراد بوش وبلير أن يؤكدا على أن الله هو الذي يخطط حروبهما «الصليبية» ضد الشعوب الصغيرة.

كل هذا دفع الشعب الامريكي الى سحب ثقته من بوش فانهارت شعبيته الى مستوى أوطأ من الرئيس المطرود ريتشارد نيكسون. ثم ظهرت بوادر الانشقاق داخل الادارة الامريكية نفسها حين اضطر بوش للتخلص من فطاحل المحافظين الجدد، فتم فصل مدير المخابرات المركزية «سي آي آي» ثم نقل كبار الصقور من المحلات الحساسة فانتقل الصهيوني ولفوفيتز الى البنك الدولي وبولتن الى هيئة الامم المتحدة وتم سحب السفير المختص في تشكيل وقيادة فرق الموت، نيغروبونتي، من بغداد. والأتعس من هذا هو ابتعاد كبار المحافظين الجدد عن الرئيس بوش الذين أخذوا ينتقدونه تحريرياً. فكتب البروفسور فرانسيس فوكوياما، المعروف بالحاحه المزمن على الهجوم على العراق، يقول متهكماً: « بهجومها على العراق حققت ادارة بوش نبوءة توقعتها ذاتياً: لقد حل العراق محل افغانستان كبؤرة لجذب المجاهدين ومركز تدريبهم وكقاعدة لعملياتهم مع وجود الكثير من الاهداف الامريكية لضربها». أما المتعطش الرئيسي للحرب بين كافة الصقور الجمهوريين، ريتشارد بيرل، الملقب بأمير الظلام والذي كان كبير المستشارين في البيت الابيض اثناء العدوان وبعده فكتب منتقداً الادارة الامريكية بالقول: «لقد تمت مناقشة الحملة العسكرية وعواقبها السياسية بكل حماس داخل ادارة بوش. انها قررت الحرب بصورة صحيحة وأخطأت في تقدير عواقبها. كان علينا أن نفهم بأننا كنا بحاجة الى شركاء عراقيين». أي انه اعترف الآن بخيبة امله بالشركاء العراقيين الذين رافقوا الجيش الامريكي المهاجم واشتركوا في مجلس الحكم فيما بعد. لقد اتسع عدد المنتقدين المقربين لبوش ليشمل الجنرال جي غارنر ووليم باكلي واندرو سوليفان وجورج ويل، بل وحتى الحاكم الامريكي بول بريمر ونائبه البريطاني غرينستوك. وهذا الاخير قرر تأليف كتاب لنقد بعض الاخطاء ولخطورته قررت الحكومة البريطانية منع نشره بحجة احتوائه على اسرار الدولة.

لقد اتضح الافلاس الكلي للسياسة الامريكية في الساحة العراقية نفسها: لقد قرر المحتلون اولاً تقسيم الشعب العراقي الى السنة والشيعة والاكراد واخذوا يؤكدون على «الاكثرية الشيعية» و«المثلث السني» الذي ينتشر فيه «العصيان» ضد الديمقراطية والاستقرار وأخذوا يقصفون مدنه دون رحمة. ثم شكلوا مجلس الحكم على اساس طائفي واعطوا امتيازات خاصة للمتطرفين من امثال ابراهيم الجعفري وموفق الربيعي الذين وقعوا «بيان الشيعة» حتى قبل الهجوم على العراق. لقد كان الغرض الامريكي واضحاً لدى الشعب خاصة حين انتفض أنصار المناضل الشاب مقتدى الصدر في عموم وسط العراق وجنوبه وتمكنوا من تعليم المحتلين درساً قاسياً في مدينة الصدر والكوت والعمارة والبصرة والنجف والكوفة.

ومع ازدياد زخم المقاومة وانتشار ساحتها التجأ المحتلون الى استخدام حيلة الانتخابات واختاروا حتى مواعيدها واستخدموا الطريقة الامريكية في تنفيذها عن طريق اعلان الاحكام العرفية وحالة الطوارئ ومنع التجول وغلق الحدود ومنع استخدام السيارات ومنع التنقل بين المدن، واختاروا عناوين سرية للمراكز الانتخابية ونشروا جيوشهم في الشوارع لخلق جو من الرعب في نفوس الناخبين مما منع الملايين من المشاركة في التصويت بل قرروا مقاطعة العملية كلها والطعن في شرعيتها التي جرت تحت ظل الاحتلال. الا أن التمثيليات الديمقراطية فشلت في قمع الثورة الشعبية التي اتسعت ساحتها ونفوذها الشعبي بالرغم من الحاح المحتلين على أن «العصاة هم اجانب ومن اعوان ابي مصعب الزرقاوي». والاتعس من هذا هو انتشار الاغتيالات وخطف الالوف من الشوارع، تلك الظاهرة الخطيرة التي لم يكن لها وجود في العراق منذ أيام هولاكو! في حين اتسع الفساد الحكومي والسرقات وخاصة سرقة السيارات التي تم نقلها الى السليمانية ومنها الى ايران، بينما استمر انقطاع الكهرباء والماء وأخذ العراق يستورد البترول من الكويت بعد ان تمكنت المقاومة من ضرب واحراق المنشآت النفطية وانابيبها، وانتشرت البطالة وانعدم الامان وكثر الهجوم على المحلات العامة بل على محلات العبادة كالكنائس والجوامع والحسينيات، وفي خضم المعارك الدموية اليومية اضطرت مئات الالوف من العوائل الى الهجرة الى الخارج للتخلص من الجحيم الديمقراطي.

اما في المنطقة الكردية فلقد ادرك الشعب اكاذيب الحزبين الكرديين (اوك وحدك) اللذين شاركا العدو الامريكي في احتلال بلدهم. لقد شاهدوا انتشار الفساد والمحسوبية وسرقة الاملاك والاراضي الاميرية من اصحابها وتوزيعها على قادة الحزبين واقربائهم. وانعدمت الزراعة واخذت المنطقة تستورد حتى البصل والجزر من ايران، وبعد مرور ثلاث سنوات على الاحتلال أدرك الشعب الكردي، وخاصة اكراد كركوك، بأن المستعمرين واعوانهم في الحزبين لم يفيدوهم قيد شعرة بل أصبحوا معرضين للقتل والاختطاف، في حين انقطع عنهم الماء النقي والكهرباء والبترول، بينما تحولت كركوك الى قنبلة موقوتة تتوقع الانفجار العرقي لحظة ضمها الى امبراطورية الحزبين الشوفينيين. وفي خضم الاصطدامات الدموية اليومية في مدينتي المنكوبة خرج المتظاهرون في السليمانية وكلار ضد انقطاع التيار الكهربائي في حين هاجم المتظاهرون في عقرة ورحيم آوا، في كركوك، واشعلوا النيران في محطات الوقود ، فجابهتهم شرطة الحزبين وقتلت منهم ثلاثة. لقد تم اكتشاف زيف الاعيب الديمقراطية التي افقدت الشعب الكردي الامان والاستقرار ففررت غالبيتهم نبذها. ففي تقرير لمراسل الـ«بي بي سي» من اربيل أكد جيم مير على انخفاض عدد المشاركين في التصويت على الدستور «الى 45 % » في حين يؤكد الشهود الذين كانوا في السليمانية اثناء الاستفتاء على «أن التصويت اقتصر على اعضاء الحزبين وموظفي الدوائر الحكومية». أما تزييف الانتخابات فحدث ولا حرج، فهناك بين الاكراد من صوت اكثر من مرة، بينهم من صوت في كركوك في الصباح الباكر ثم انتقل الى اربيل او السليمانية ليصوت من جديد. لقد صدق الدكتور رحيم عجينة (راجع كتابه، الاختيار المتجدد، دار الكنوز، الصفحة 275) الذي سجل خبرته حين أشرف على الانتخابات الكردية الاولى، سنة 1992 بالقول: «والناس يتحدثون عن التزوير كتسلية، ونرى منهم من يقول ضاحكاً ومتبجحاً انه صوت 8 مرات، وآخر 10 مرات....». فلاعضاء الحزبين خبرة طويلة في التصويت المتكرر! نعم ان الاخبار التي تصلني من كركوك والسليمانية تؤكد على أن الشعب الكردي سحب ثقته من هذين الحزبين.

ان الوضع المزري في العراق جاء كنتيجة حتمية للاحتلال، فبعد القضاء على الدولة فشل المستعمرون حتى في تشكيل حكومة قادرة على الخروج من المنطقة الخضراء، بل ليست هناك حكومة حقيقية. فبعد هدم ضريح الائمة في السامراء انتشرت جرائم القتل وحرق المساجد ولم تجرؤ حكومة الجعفري على القيام بشيء سوى اعلان الحداد لثلاثة أيام ولكنها فشلت حتى في جمع جثث الموتى من الارصفة والأزقات. ففي تقرير للتلفزيون البريطاني، «بي بي سي»، استطرد المراسل من بغداد يقول: «وفي منطقة نهروان تمكنت الشرطة العراقية من جمع 18 جثة فقط وذلك لخوف افراد الشرطة من تفتيش المنطقة كلها للعثور على اعداد اخرى من الجثث المتناثرة في كل مكان». أما السفير الامريكي خليل زاد، الذي يتهم وزارة الداخلية بالتطرف الطائفي، فهدد يقول: «ان الحكومة الامريكية ستلجأ الى قطع المساعدات المالية عن العراق في حالة اختيار الطائفيين للوزارات الحساسة.» أي أن الامريكان أخذوا ينكرون دورهم في نشر الطائفية في البلاد، في حين بعث جلال الطالباني مندوبه، برهم صالح، لزيارة السيستاني لاخباره عن رفض الحزبين الكرديين بقبول الجعفري رئيساً للوزارة الجديدة التي قد تتشكل بعد الانتخابات المنسية، تلك التي فشلت في وضع حد لانتشار القتل والخطف والسرقات، ناهيك عن هدم اماكن العبادة.

كل هذا أجبر الائتلاف الجعفري ـ الصدري على التهديد التحريري بالمقاومة المسلحة للاحتلال وذلك طبقاً لديالكتيك الذي يؤكد على تطور الاشياء وتحولها الى نقيضها. هكذا انشقت جبهة العدو وهكذا تم الاثبات على امكانية توسيع نطاق المقاومة عن طريق انسحاب قوى كبيرة، كحزب الدعوة، من جبهة المستعمرين وانضمامها الى جبهة الشعب التواق للتحرر. والأهم من كل هذا هو ضرورة تحلي المقاومة الوطنية بالمرونة القصوى والقبول بترك الاحقاد العميقة التي غرزها المحتلون في نفوس شعبنا المظلوم ووضع حد للحرب الاهلية ومنع انتشارها، فالتطورات الاخيرة تشير بوضوح الى أن الحكومة الامريكية تعمل بجد لتحويل الفتنة الطائفية الى حرب شاملة ولهذا اعلن رامسفيلد «أن الجيش الامريكي سوف لا يتدخل كطرف في الحرب الاهلية» أي أن امريكا تعمل على انقاذ نفسها من الازمة، التي خلقتها، عن طريق اضعاف الشعب العراقي باشغاله في حرب طاحنة تستمر الى أن يستطيع جيشها السيطرة على البلاد. فالعمل على توحيد الجهود مع كافة قوى شعبنا وتجريد العدو المحتل من انصاره بكل الطرق المتوفرة ضرورة وطنية آنية لا مفر منها. وهنا من الضروري عدم نسيان خطة المحافظين الجدد التي اقترحها مايكل ليدين سنة 1996 (راجع مقدمة هذه المقالة) لنشر الديمقراطية «بالحرب الشاملة على العراق وايران وسورية». فشعبنا المنكوب بحاجة قصوى لا لتوحيد كافة الخيرين ضد المستعمرين الانغلو ـ أمريكان بل للتحالف مع الشعبين الايراني والسوري المهددين في كل يوم من قبل نفس العدو الذي حطم العراق وقتل شعبه وبنى فيه القواعد العسكرية العملاقة لاستخدامها في الهجوم على الجارتين الشقيقتين. فإلى وحدة الجهود ونسيان الخلافات العميقة وتشكيل محور خير واسع لتطهير المنطقة كلها من شر العدو المصاب بالانتكاسة القاتلة.

* عضو المجلس الاداري للهيئة العراقية للاعلام والثقافة الوطنية

الحرب الاهلية والتنكيل بالفلسطينيين في العراق: الدور الايراني

ربيع الحافظ *

■ هل يطلق على ما يحدث في العراق حرب أهلية؟ هل في ذلك مفاجأة للعراقيين؟ متى يدخل مصطلح «الحرب الأهلية في العراق» في قاموس الإعلام العربي لوصف ظاهرة قتل ألف شخص في الشهر الواحد في مدينة بغداد وحدها؟

يبدو أن هذه التساؤلات ستأخذ بعض الوقت قبل أن تجد إجابات واثقة. القضية الأخرى، هي أنه لم يتبقَ ما يمكن إضافته إلى ما لاكته ألسن النقاد والمحللين السياسيين على مدى ثلاثة أعوام، وهم يحاولون دون جدوى وضع بضعة نقاط على حروف خرساء في عناوين تاريخية كبيرة صامتة.

تبدو الذاكرة الجماعية للشعوب أقصر الطرق إلى الإجابات الواثقة. فلا زالت الأمهات والزوجات العراقيات يذكرن ويرددن الروايات التي كان يعود بها أبناؤهم وأزواجهم المعتقلون في إيران إبان الحرب، ومعاناة الأسير، السني على وجه التحديد، في معسكرات الأسر، وبرامج التعذيب المنظم لانتزاع الاعترافات والبوح بمعلومات حساسة عن وطنهم، وعن أسماء العلماء والقادة العسكريين، وإرغام «المشاكسين» منهم على السير فوق حقول الألغام، أو ربط الأرجل بسيارتين تسيران باتجاهين متعاكسين.

في هذه المعسكرات كان يضطر الأسرى إلى طمس الهوية المذهبية، وإخفاء أسماء عمر ومروان وعثمان، والتحدث بلهجة تبعد الدلالة عن المدينة أو القرية التي ينتمي إليها، ويخضعون إلى برامج التشييع القسرية.

ليس لدى العراقيين شك من أن الصدور المتهيئة بالطائفية والشعوبية كانت الدافع وراء الجرائم التي كانت ترتكب على أرض إيران، وأن الفاعل كان فيلق بدر، التابع لما يسمى «المجلس الأعلى للثورة الإسلامية»، الذي أسسته وموّلته وسلحته إيران، ومرشده الروحي عزيز الحكيم الطباطبائي، الفارسي النسب، وحفيد المير علي بن مراد بن شاه، الطبيب الخاص للشاه عباس الكبير الصفوي، الذي غزا بغداد في عام 1623 وحولها إلى حمام دم، ووزع دفاتر لتقييد أسماء أهل السنة في بغداد بقصد قتلهم جميعاً، وجعل من جامع أبي حنيفة اسطبلاً لخيوله.

هذا ما تقوله لنا ذاكرة العراقيين. السؤال: أين وجه المفاجأة فيما يحدث اليوم؟

في 9 نيسان (أبريل) 2003 عبر فيلق بدر الحدود الإيرانية إلى داخل الأراضي العراقية، واستبدلت عناصره لباسها ببزات نقش على أكمامها رمز IP، التي تعني الشرطة العراقية، وزودت الحكومة الجديدة الفيلق سيارات تحمل شعار «وزارة الداخلية»، وأصبح قائد الفيلق الإيراني الأصل، والمنتحل نسباً عربياً، نائباً عن الشعب في المجلس الوطني!

أصبح فيلق بدر مرة أخرى وجهاً لوجه مع ضحاياه السابقين، ومع الآخرين الذين لم يقعوا في الأسر، ومع الطيارين الذين حجبوا بطائراتهم الشمس في سماء قم وطهران، ومع العقول التي أنشأت التصنيع العسكري، وصنعت الصواريخ وأبدعت، والذين انتزعت أسماؤهم في معسكرات تحت التعذيب، وحُفظت في دفاتر لمثل هذا اليوم.

ماذا عسى أن يحدث؟

عادت عناصر فيلق بدر لتستأنف المعركة التي ابتدأتها على أرض إيران، وبأيديهم دفاتر الأسماء، يدورون بها كساعي البريد على المنازل، ويبثون الرعب في ساعات منع التجول، وينقضون على العلماء والمهندسين ونسور الجو وهم رابضون على الأرض.

أجواء معتقلات الأسرى انتقلت إلى بغداد، وفي بغداد اليوم مناشير توزع تحت عنوان «تظاهر بالتشيع لتنجو من الخطف والتعذيب والقتل»، ترشد العربي السني إلى كيفية إخفاء هويته ومذهبه، واستعارة أسماء تدفع الشبهة المذهبية، وتعلمه ألفاظ سب الصحابة (رض) وبني أمية المعتمدة عند الصفويين، وشيئاً من الطقوس الشيعية، والاحتفاظ في داره بعلم أسود، اتقاءً من أذى المليشيات الطائفية، ونجاة بنفسه من الخطف والقتل.

شعوبية المليشيات الطائفية ليست محلية، وسيسجل التاريخ أن مخيمات الفلسطينيين في الحقبة الصفوية من تاريخ شعوبنا لم تعد على حدود فلسطين، بل على أطراف بغداد الصفويين (عذراً بغداد فأنت العربية المسلمة أبداً)، يساومون العذاب بالنيابة عن الجار الصهيوني الجديد، ليس بعيداً عن بابل التي نجت من الدمار المغولي ولم تنج اليوم، والتي كان نبأ تدميرها حبة مهدئة للذاكرة اليهودية المتوترة من الخطر الشرقي.

ما يذوقه فلسطينيو العراق ذاقه قبلهم المهجّرون من أصول فارسية، الذين أبعدهم العراق قبل الحرب مع إيران. لم ينسَ أولئك سوء المعاملة التي قابلتهم بها إيران، ولم يشفع لهم نسبهم الفارسي وحقيقة أنهم شيعة، وكان لسانهم العربي وتلوث دمائهم الفارسية بالدماء العربية من خلال المصاهرات، المعصية التي جعلت منهم عرقاً محتقراً، وأخرجتهم من الفردوس الفارسي، وكانت غربةً وكآبة منافي اسكندنافيا أهون على أنفسهم من التمييز العرقي الذي جرت عليه الحرب، بأن المستعمرين واعوانهم في الحزبين لم يفيدوهم قيد شعرة بل أصبحوا معرضين للقتل والاختطاف، في حين انقطع عنهم الماء النقي والكهرباء والبترول، بينما تحولت كركوك الى قنبلة موقوتة تتوقع الانفجار العرقي لحظة ضمها الى امبراطورية الحزبين الشوفينيين. وفي خضم الاصطدامات الدموية اليومية في مدينتي المنكوبة خرج المتظاهرون في السليمانية وكلار ضد انقطاع التيار الكهربائي في حين هاجم المتظاهرون في عقرة ورحيم آوا، في كركوك، واشعلوا النيران في محطات الوقود ، فجابهتهم شرطة الحزبين وقتلت منهم ثلاثة. لقد تم اكتشاف زيف الاعيب الديمقراطية التي افقدت الشعب الكردي الامان والاستقرار ففررت غالبيتهم نبذها. ففي تقرير لمراسل الـ«بي بي سي» من اربيل أكد جيم مير على انخفاض عدد المشاركين في التصويت على الدستور «الى 45 % » في حين يؤكد الشهود الذين كانوا في السليمانية اثناء الاستفتاء على «أن التصويت اقتصر على اعضاء الحزبين وموظفي الدوائر الحكومية». أما تزييف الانتخابات فحدث ولا حرج، فهناك بين الاكراد من صوت اكثر من مرة، بينهم من صوت في كركوك في الصباح الباكر ثم انتقل الى اربيل او السليمانية ليصوت من جديد. لقد صدق الدكتور رحيم عجينة (راجع كتابه، الاختيار المتجدد، دار الكنوز، الصفحة 275) الذي سجل خبرته حين أشرف على الانتخابات الكردية الاولى، سنة 1992 بالقول: «والناس يتحدثون عن التزوير كتسلية، ونرى منهم من يقول ضاحكاً ومتبجحاً انه صوت 8 مرات، وآخر 10 مرات....». فلاعضاء الحزبين خبرة طويلة في التصويت المتكرر! نعم ان الاخبار التي تصلني من كركوك والسليمانية تؤكد على أن الشعب الكردي سحب ثقته من هذين الحزبين.

ان الوضع المزري في العراق جاء كنتيجة حتمية للاحتلال، فبعد القضاء على الدولة فشل المستعمرون حتى في تشكيل حكومة قادرة على الخروج من المنطقة الخضراء، بل ليست هناك حكومة حقيقية. فبعد هدم ضريح الائمة في السامراء انتشرت جرائم القتل وحرق المساجد ولم تجرؤ حكومة الجعفري على القيام بشيء سوى اعلان الحداد لثلاثة أيام ولكنها فشلت حتى في جمع جثث الموتى من الارصفة والأزقات. ففي تقرير للتلفزيون البريطاني، «بي بي سي»، استطرد المراسل من بغداد يقول: «وفي منطقة نهروان تمكنت الشرطة العراقية من جمع 18 جثة فقط وذلك لخوف افراد الشرطة من تفتيش المنطقة كلها للعثور على

*عضو معهد المشرق العربي وإيران
alhafidh@hotmail.com

رسالة إلى الفرقاء في أبوجا:

الفدرالية هي النظام الانسب لحكم السودان

طه يوسف حسن *

■ الفدرالية هي أفضل تجسيد مؤسسي لواقعنا السوداني الذي يبحث عن نظام حكم مستقر في آيكة عوسج فالتكوين الثقافي والعرقي والإثني يوفر حظاً كبيراً لممارسة النظام الفدرالي في السودان والفدرالية هي أسلوب براغماتي يسمح باحترام مصالح محددة لا يمكن التعامل معها كما لو كانت التنبؤات السياسية إلى أنها تتطلع إلى تطبيق النظام الفدرالي كما هو الحال في الاتحاد الاوروبي الذي ينوي استخدام النظام الفدرالي في المستقبل القريب، ويعتقد الخبراء أنه النظام الوحيد الذي يمكن أن يجتمع تحت سقفه هذا العدد الكبير من السكان بثقافاتهم واعراقهم المختلفة، دون أن يشعر أحد بالغبن. ولا شك في أن نجاح التجربة الفدرالية في وسط أوروبا في دول مثل المانيا والنمسا وسويسرا إعتمد على الثقافة السياسية والتسامح السياسي والتنازلات والوعي الكامل بمفهوم الديمقراطية والقبول بها، لا سيما وأن النظام الفدرالي لا يشترط بالضرورة أن يضم تحت سقفه اعراقا أو ثقافات متكافئة في القوة الاقتصادية على سبيل المثال، فإذا لم يقتنع الشركاء في النظام الفدرالي بالاحترام المتبادل وعدم تعالي طرف على آخر، فإن أي محاولة للتقارب تحت مظلة الفدرالية سيكون محكوم عليها بالفشل.

وفي عالمنا المعاصر، ومن بين الأنظمة الفدرالية الأربعة والعشرين المتواجدة في المعمورة، أصبح النموذج السويسري يجسّد نجاح دولة في استيعاب أقلياتها اللغوية والثقافية واكتسبت سويسرا خبرة من ذات الجودة العالية في التعاطي مع النظام الكنفدرالي وأصبحت المرجعية السياسية في مجال الحكم الكنفدرالي حيث أوفدت وزارة الخارجية السويسرية إلى نيقوسيا فريق خبراء في مجال الوساطة والقانون الدستوري ليقدم هؤلاء الخبراء النصح للقبارصة اليونانيين والأتراك الذين يتفاوضون بشأن توحيد الجزيرة على أساس مشروع أممي مستوحى من النظام الفدرالي السويسري، وقد السويسري مزقت أوصال ذلك البلد ولكن بعد الولادة القيصرية للإتحاد السويسري أصبحت تلك الدولة الصغيرة الحجم ذات كيان دولي بفضل النظام الكنفدرالي الذي أوجد الوحدة والإنصهار رغم التباين العرقي والثقافي واللغوي. والسودان يعاني نفس أعراض ذلك المخاض فبدل أن يضع مولوداً فدرالياً مشوها على طريقة تشيكوسلوفاكيا عليه أن يستفيد من المخاض السويسري حتى ينجب فدرالية تحترم التعددية الثقافية والعرقية والعقائدية. وحتى الدول الديمقراطية تشير بعض التنبؤات السياسية إلى أنها تتطلع إلى تطبيق النظام الفدرالي كما هو الحال في الاتحاد الاوروبي الذي ينوي استخدام النظام الفدرالي في المستقبل القريب، ويعتقد الخبراء أنه النظام الوحيد الذي يمكن أن يجتمع تحت سقفه هذا العدد الكبير من السكان بثقافاتهم واعراقهم المختلفة، دون أن يشعر أحد بالغبن. ولا شك في أن نجاح التجربة الفدرالية في وسط أوروبا في دول مثل المانيا والنمسا وسويسرا إعتمد على الثقافة السياسية والتسامح السياسي والتنازلات والوعي الكامل بمفهوم الديمقراطية والقبول بها، لا سيما وأن النظام الفدرالي لا يشترط بالضرورة أن يضم تحت سقفه اعراقا أو ثقافات متكافئة في القوة الاقتصادية على سبيل المثال، فإذا لم يقتنع الشركاء في النظام الفدرالي بالاحترام المتبادل وعدم تعالي طرف على آخر، فإن أي محاولة للتقارب تحت مظلة الفدرالية سيكون محكوم عليها بالفشل.

وفي عالمنا المعاصر، ومن بين الأنظمة الفدرالية الأربعة والعشرين المتواجدة في المعمورة، أصبح النموذج السويسري يجسّد نجاح دولة في استيعاب أقلياتها اللغوية والثقافية واكتسبت سويسرا خبرة من ذات الجودة العالية في التعاطي مع النظام الكنفدرالي وأصبحت المرجعية السياسية في مجال الحكم الكنفدرالي حيث أوفدت وزارة الخارجية السويسرية إلى نيقوسيا فريق خبراء في مجال الوساطة والقانون الدستوري ليقدم هؤلاء الخبراء النصح للقبارصة اليونانيين والأتراك الذين يتفاوضون بشأن توحيد الجزيرة على أساس مشروع أممي مستوحى من النظام الفدرالي السويسري، وقد يكونُ النّظام الفدرالي مخرجا للأزمة التي تعيشها سريلانكا منذ اندلاع الحرب الأهلية فيها عام 1983 فلذا قامت سويسرا بجمع الفرقاء السريلانكيين الشهر الماضي على ضفاف بحيرة ليمان الزرقاء وعرضت عليهم تجربتها الفريدة في نظام الحكم علها تكون المخرج لتلك الأزمة المزمنة التي أرهقت أسود التيمور.

يقدم النظام الفدرالي بدائل كثيرة للتعبير عن الواقع الثقافي التعددي. ففي كل الدول التي تبنت هذا النظام، يوجد برلمان من مجلسين: الأول يمثل شعب البلد بأكمله، أما الثاني فيجسد الكيانات المتميزة داخل الدولة، سواء كانت عرقية أو لغوية. عدا عن ذلك، توجد مستويات أخرى غير تشريعية تسمح باستيعاب الجماعات والأقليات داخل الدولة. ففي سويسرا، على سبيل المثال، تلعب السلطة التنفيذية دورا في هذا الجانب. حيث أصبح من المعتاد، منذ عام 1959 تحديدا، تعيين أعضاء في المجلس الفدرالي من المنتمين إلى اللغات الوطنية الثلاث الألمانية والفرنسية والإيطالية، وإلى الأحزاب الكبرى. وبنفس النسق، تتوافر قنوات قضائية تتيح للأقليات إسماع صوتها. في بلجيكا، مثلاً، هناك ما يعرف بإسم «إجراء جرس الإنذار»: عندما تشعر أقلية بأن البرلمان على وشك تمرير قانون سيضر بمصالحها، يصبح واجباً على الحكومة أن تبحث عن حل وسط أو بديل. يعيش اليوم نحو 40 % من سكان العالم في دول ذات أنظمة فدرالية. معظم تلك البلدان متعددة الثقافات، وبعضها متعدد الهويات الوطنية مثل الهند وكندا ودولة الأمارات العربية النموذج الفدرالي العربي الوحيد وألمانيا والنمسا وروسيا ودول البلقان ونيجيريا وغيرها من الدول الكنفدرالية، ونحن في السودان لدينا كل مقومات الحكم الفدرالي من تباين في الأعراق والتقاليد والثقافات والمشاكل المزمنة التي لم تعالجها الأنظمة الديمقراطية ولا الأوتقراطية ولا الأنظمة الشمولية فلماذا لا نفسح المجال للتجربة الكنفدرالية ربما نجد فيها ضالتنا!

أخيراً نريد في السودان حكماً لا يموت فيه الذئب ولا تفنى الغنم.

* باحث من السودان يقيم في جنيف

الولايات المتحدة مهددة بـ «الثيوقراطية»!

جواد البشيتي*

موقع www.amazon.com يستحق الزيارة، فمبيعات الكتب هنا يتصدرها كتاب، مؤلفّه كيفن فيليبس، وموضوعه مسعى الرئيس جورج بوش لإقامة نظام حكم ثيوقراطي (ديني) في الولايات المتحدة، وإحلال «الإيمان»، كما يقول المؤلفّ، محل «المنطق» في عقول مواطنيها. والكتاب هو من سلسلة كتب، ألفّ بعضها «محافظون»، ويتوفر مؤلفوها على شرح وتحليل أبعاد هذا التحول من الليبرالية والعلمانية إلى الثيوقراطية والدوغماتية الدينية في الدولة العظمى في العالم، ومخاطره عليها وعلى العالم.

يقول فيليبس إن المبشرين بنهاية (دينية) وشيكة للعالم، ومنهم الرئيس بوش، وذوي التأثير في فكره ومعتقداته، لا يختلفون، في مستواهم الفكري والعقلي، عن رجل دين شيعي، وقد أظهر الاقتراعان الرئاسيان الأخيران تحولا في الحزب الجمهوري، فأصبح أول حزب ديني في تاريخ الولايات المتحدة، الذي لم يعرف، من قبل، مثل هذا الزواج غير الشرعي، بحسب المعايير والمبادئ الليبرالية والعلمانية، بين إدارة الرئيس بوش وحزبه وبين الكنائس، التي تُستنهض لإلغاء عقول المواطنين قبل كل استحقاق انتخابي، وكأن القوة العظمى في العالم تستحث ذاتها على المضي قدما في الدرب الذي سارت عليه، من قبل، «روما القديمة»، و«أسبانيا محاكم التفتيش»، و«إنكلترا في العهد الفيكتوري».

حتى الأستاذ الجامعي فرانسيس فوكاياما، الذي قال قبل نحو 8 سنوات بنهاية التاريخ، مستنسخا وماسخا فكرة لهيجل، والذي كان في منزلة الأب الروحي لتيار المحافظين الجدد، استصعب قبول وتبرير هذا التسييس للدين، والتدين للسياسة، الذي تنكب عليه إدارة الرئيس بوش والحزب الجمهوري.

كيف ينَظر الإنسان إلى نفسه؟ وكيف يجعله المحيطون به من ذوي التأثير ينَظر إلى نفسه؟ وكيف ينبغي لنا أن ننظر إلى هذا الإنسان؟ مصيبة أن يُظهِر الإنسان (الدجال) نفسه للناس على أنه يمت بصلة قربى، أو بصلة الرحم، إلى السماء، أو الرب. ولكن المصيبة أدهى وأمر إذا نَظر إلى نفسه على أنه كذلك فعلا، أي إذا اقتنع بأنه مبعوث العناية الإلهية، أو في منزلته.

وأحسب أن الرئيس بوش ليس دجالا، وإنما مقتنع بأنه وحي يوحى. وأحسب، أيضا، أن الدجالين، من حوله، هم الذين أدخلوا في روعه أن روح القدس نفثت في روعه أن الرب هو الذي يلهمه الرأي والقرار، فسيد البيت الأبيض إنما ينتمي إلى ذوي النفوس الكبيرة والعقول الصغيرة، أي إلى أولئك الذين فيهم يمكن العثور على «الرئيس» الذي هو «رأس تحركها رقبة»، تارة ظاهرة، وطورا مستترة!

«الخبر السيئ» أن الرب أمر «المولود الجديد»، أي جورج بوش الذي انتمى إلى كنيسة الإنجيليين سنة 1985 بعدما قضى الشباب من عمره في أعم